

د. سليمة بونعيجة راشدي
جامعة باجي مختار - عنابة
قسم اللغة العربية وآدابها

تعليمية اللغة العربية والمواد
الدراسية الأخرى

ملخص

تبدو أهمية اللغة باعتبارها وسيلة للتعليم و التعلم عند تلقين المعارف وتلقيها بالاستماع و الفهم و الحديث و القراءة و الكتابة. و أكثر ما تتجلى قيمتها عند المتدربين في تحصيل مهاراتها و القدرة على استعمالها بما يخدم الحاجات و الأغراض في الوسط التعليمي. من هذا المنطلق تنظر هذه الدراسة في واقع الاستخدام اللغوي في تعليمية اللغة العربية و المواد الأخرى المقدمة بالعربية، فالعوائق المحيطة ببيئة المتعلم، التي تحول دون إكسابه المهارة فيها، ثم البدائل المقترحة لتجاوز هذا الوضع المزري.

مقدمة:

اللغة والتعليم شيئان متلازمان
منصهران لا يتيسر الفصل بينهما، باعتبار
أن العملية التعليمية في حقيقة الأمر عمل
تواصلية، يستدعي بالضرورة وجود ثلاثة
عناصر أساسية هي: المرسل والمتلقي
والرسالة. فترجمة الرسالة إلى خطاب
تعليمي يعني اللجوء الحتمي إلى الفعل
اللساني، الذي يعمل على نقل المعارف
والخبرات من شخص إلى آخر نقلا يقع من
المستمع موقع القبول والفهم والتفاعل
و الاستجابة، و عليه فإن اللغة تتمظهر من
خلال مجموع النشاطات والخبرات
التربوية والاجتماعية والثقافية والعلمية

Résumé

La langue arabe est un moyen d'enseignement et d'apprentissage des autres matières. Son importance se révèle à travers son assimilation et son utilisation adéquate par les apprenants. A partir d'un vécu scolaire critique, cette étude se veut un outil capable d'installer un usage langagier efficace à des fins didactiques en proposant des remèdes pour combler les lacunes.

والفنية التي تخططها المدرسة، وتعمل على تهيئتها لتلاميذها ليقوموا بتعلمها داخل المدرسة أو خارجها؛ لإكسابهم أنماطاً من السلوك، أو تعديل أنماط أخرى نحو الاتجاه المرغوب.¹

على هذا النحو يهدف التعليم العام إلى تنمية قدرات التلاميذ واستعداداتهم، وإشباع ميولهم وتزويدهم بالقدر الضروري من القيم والسلوكيات والمعارف والمهارات العلمية والمهنية التي تتفق وظروف البيئات المختلفة، بحيث يمكن لمن يتم مرحلة التعليم الأساسي أن يواصل تعليمه في المستويات العليا، أو أن يواجه الحياة بعد تدريب مهني مكثف. هذا كله من أجل إعداد الفرد الصالح، النافع لمجتمعه، والمنتج في بيئته. ولكي يتجسد هذا الهدف على أرض الواقع يترك المجال مفتوحاً أمام منهج اللغة والمناهج الدراسية الأخرى حتى تقوم بالمهام المنوطة بها، وهي على النحو الآتي:

1- تزويد المتعلم بقدر مناسب من اللغة يساعده على اكتساب الحد الأدنى من المعرفة اللازمة لإجادة عمل أو حرفة أو مهنة معينة يشارك بها في بناء مجتمعه، وكذلك اكتساب الحد الأدنى من الرصيد اللغوي الذي يساعده على مواجهة حاجاته في التواصل بلغة مرنة وسهلة، يُبلِّغ بها رسالته بوضوح في العرض وتأنق الصياغة.

2- الحرص على تكامل الخبرة سواء بين الجوانب النظرية والعملية في منهج اللغة، أو بين اللغة والمواد الدراسية الأخرى (علوم ورياضيات وفيزياء و مواد اجتماعية... الخ).

3- الصلة المباشرة بالبيئة المحيطة بالتلميذ، لكي تكون مصدراً من مصادر التزويد بالمعرفة، وكذا انتقاء الخبرات، وتوفير المجالات التي تسمح بتطبيق ما تمّ تعلّمه.² فهذه الطريقة يبرز الجانب الوظيفي في تعليم اللغة، والذي يسهم أيّما إسهام في الربط بين ما يُعلّم في المدرسة وما يجري في الحياة من باب مراعاة الحاجات الراهنة والمستقبلية للفرد والمجتمع.

اللغة العربية والمواد الدراسية الأخرى:

كغيرها من اللغات الحيّة الرائدة في العالم تجد العربية نفسها معنية بالعملية التعليمية في شتى أطوارها باعتبارها اللغة الرسمية في البلاد، ولغة التواصل المعتمدة

في مختلف الأصعدة الرسمية. فمن هذا المنظور يتضح أن اللغة العربية جديرة بالاحتفال لما يسند إليها من وظائف ومهام في غاية الأهمية، فهي ليست مادة قائمة بذاتها وحسب، بل معين لا ينضب لتدريس المواد الأخرى على امتداد مراحل التعليم العام. إنها أداة التعليم ومفتاح تحضير المواد وعرضها على المتعلمين، وبها تنتسّر قراءة مراجع هذه المواد وشرحها، وتألّف المناهج الدراسية الخاصة بكل مرحلة، وعليه يتعذر الفصل بينها وبين المواد الدراسية المختلفة علمية كانت أو اجتماعية أو أدبية.

ومن الواضح أن كل مادة دراسية تلبي حاجة معرفية عند التلاميذ هدفها إكسابهم مهارات محدّدة تلزمهم في الحياة،³ واللغة سبيل التعبير عنها جميعا. إذ من خلالها يتزوّدون بالمصطلحات ويستوعبون المفاهيم الدالة عليها، وبها يعبرون عن الأفكار والآراء والاقتراحات التي تراودهم. تستدعي هذه العلاقة إذاً ظهور وشائج وصلات حتمية بين اللغة العربية والمواد الدراسية الأخرى تمتاز فيما بينها بالتآلف والتعاضد والتكامل. وهو مما يعزّز الرباط بين مناهج اللغة العربية والمواد الأخرى في التدريس، فكل منها يتطلب وجود الآخر حتى تتحقق الأهداف وتؤدّي المهام، من خلال تصنيف المهارات التي يُعمل على إكسابها المتعلمين، وهي على ضربين: مهارات لغوية ذات العلاقة بفنون اللغة الأربعة، ومهارات دراسية أخرى يعتدّ بها في النجاح والانتقال من سنة إلى أخرى؛ وهي مرتبطة بالعلوم والرياضيات والاجتماعات... الخ. نضيف إلى ذلك ضبط المفردات والتراكيب والمفاهيم الشائعة في كتب المواد الدراسية المختلفة في مراحل التعليم العام وتوظيفها في منهج اللغة العربية.

إنّ تضافر هذه المعطيات مجتمعة تمنحنا صورة دقيقة عمّا يمكن أن يتحقق من انسجام في البرامج وتكامل لغوي ومعرفي في شخصية التلميذ. يبدو ذاك جليا من خلال تقدم هذا الأخير في تطوير مهاراته في اللغة، لما لها من علاقة في مساعدته على النجاح في التحصيل المعرفي الذي يقوم على الاستماع والقراءة والفهم والحديث والكتابة. ولقد أثبتت الدراسات أن كثيرا من الصعوبات التي تعترض فئات الدارسين والأخطاء التي يقعون فيها عند تلقي المعرفة، تعود في حقيقة الأمر إلى عدم تمكّنهم

من فهم ما يقرأون، أو ضعفهم في التعبير عما يعرفون، وذلك لغياب القدرة على الاستخدام السليم للأساليب اللغوية.

وعليه فإنّ تعليمية اللغة العربية تسعى صوب إعداد المتعلم ومساعدته على أداء الكفاءات الأكثر وظيفية وتلاؤماً مع عصره، من أن يمارس فنون اللغة من استماع وفهم وحديث وقراءة وكتابة بجدارة ودون أدنى تقصير، وكذا تدريبه على أساليب العمل الفكري من إدراك وتطبيق وتحليل وربط وتقويم، يترتب عليه فهم المصطلحات وتحليل مفاهيمها وضبط الإشكاليات، وغير ذلك.

وقد تبين لنا من خلال مطالعتنا المبدئية لكتاب اللغة العربية في المرحلة المتوسطة، أنه من الثراء اللفظي والتنوع الموضوعاتي ما يجعل الصلة قائمة ومتينة بينه وبين المواد الأخرى، والأخذ بنموذج واحد منها - في كتاب اللغة العربية للسنة الثانية متوسط⁴ - يقدم لنا صورة حيّة عن ذلك. فهو يتوفر على نصوص جدّ متنوعة في اللغة والأدب، والتاريخ والجغرافية، والفيزياء، والكيمياء، وعلوم الطبيعة والحياة، والفقه والسير، والتطورات الراهنة السياسية والعلمية والاجتماعية والثقافية. وهو مما يجعل المتعلم يستجيب لأصالته ويعيش عصره، ويَعْرِف من المعارف، فينتقل بين العلوم والمعارف دون أن يشعر أن هناك شرخاً بين مادة اللغة العربية والمواد الدراسية الأخرى.

ماهية المواد الدراسية والمحتوى: (ملاحظات أولية عامّة)

ترتبط العملية التعليمية في تلقين المعارف وسائر العلوم بالعناصر الآتية: أولها اللغة؛ وهي الأداة اللسانية المستعملة في تبليغ المحتوى [المادة الدراسية] للشرائح الواسعة من الدارسين، وثانيها التقنيات والوسائل؛ ويُعني بها المعينات المساعدة على تيسير تقديم الدروس وبلوغ درجة عالية من الفهم و الإفهام. والأمر متصل هنا بالتكوين البيداغوجي والتقني للمعلم ومدى فاعليته في التحكم في هذه الوسائل. وإن الناظر في برامج التعليم العام يلاحظ وجود مجموعة من الكتب المدرسية العربية الصادرة عن وزارة التربية الوطنية في إطار الإصلاحات الجديدة للمنظومة التربوية (سبعة 07 أو ثمانية 08) المخصّصة لتعليم اللغة العربية والمواد الدراسية الأخرى نذكرها فيما هو آت: كتاب التربية الإسلامية (أو العلوم الشرعية)، وكتاب التربية

العلمية والتكنولوجيا (أو العلوم الفيزيائية والتكنولوجيا)، وكتاب التربية المدنية، وكتاب الرياضيات، وكتاب الجغرافيا، وكتاب التاريخ، إلى جانب كتاب اللغة العربية. وبطبيعة الحال فإن جميع هذه المواد -وبدون استثناء- تمّ إنجازها باللغة العربية الفصحى المعاصرة، ويتم تلقينها باللغة نفسها وقد سجلنا من خلال مطالعتنا الأولى لهذه المحتويات الدراسية مايلي:

- 1- الإفادة الواضحة من المستجدات المعرفية واللسانية والنفسية والاجتماعية.
- 2- الكثافة والتنوع في عرض المعارف التي لها صلة مباشرة ببيئة المتعلم المحلية والعالمية.
- 3- تطبيق معيار التدرج في عرض المعرفة من البسيط إلى المعقد، ومن المعلوم إلى المجهول، وكذا التدرج الأفقي في عرض الموضوعات والرأسي في عرض المحاور، نشعر معه بالتواصل والارتباط بين البرامج على امتداد السنوات.
- 4- أفرز التنوع في المواد وموضوعاتها ثروة معجمية دلالية من شأنها أن تثري الحصيلة اللغوية للمتعلم، يفتح له بها مجال الانطلاق في التعبير عن الوقائع والأحداث والأخلاق والظواهر وكذا المستجدات في شتى الميادين.
- 5- التوزيع في الأنشطة بما يستجيب والأهداف التربوية في المجال المعرفي الإدراكي، والمجال الوجداني وتنظيم القيم، والمجال الحسي الحركي.
- 6- ارتباط الأنشطة بالمهارات اللغوية الأربعة؛ فالمتعلم يُنصت ويفهم، ويتحدث، ويقرأ، ويكتب، وإطلالة سريعة حول طبيعة التمارين ونوعيتها تثبت ما أشرنا إليه.
- 7- الاستعانة بوسائل الإيضاح والفهم، على نحو: الصور الملونة والأشكال الهندسية والمخططات البيانية لتقريب الدلالات والمفاهيم من أذهان المتعلمين.
- 8- إخراج الكتب يبدو متميزاً من حيث الحجم والشكل والغلاف الخارجي والألوان وطبيعة الورق (غير أن أغلبها سهل التفكيك).
- 9- لم يرد في مقدمات هذه المؤلفات شيء عن ضرورة التزام كل من المدرس والمتعلم عند التواصل بالعربية الفصحى وبخاصة عند التعاطي مع الدروس

داخل القسم رغم أن القاصي والداني يعلم أن العامية بدأت تزاخم الفصحى وتحاصرها داخل جدران المدرسة وسائر المؤسسات التربوية في وطننا. 10-ورود أخطاء لغوية متعدّدة في متون المؤلفات المدرسية الجديدة المتصلة بالمواد السالفة الذكر، نذكر من بينها "كتابة الهمزة". فهذه الظاهرة من شأنها أن تسيء إلى العربية من باب عدم الالتفاف إليها وعدم الحرص على تصويبها.

واقع الأداء اللغوي داخل المحيط التربوي وخارجه:

تتجه اللغة المحكية المستعملة في التعليم العام صوب العامية، فالمتتبع لواقع التعليم عندنا يلاحظ التهاون في استعمال اللغة العربية الفصحى المعاصرة في التدريس، والسعي صوب إحلال العامية محلّها. يغلب هذا السلوك اللغوي على مدرّسي المواد العلمية والاجتماعية، إذ يميلون إلى استعمال العامية أو المزوجة بين العامية والفصحى عند الشرح وإعطاء التعليمات. فالتلميذ لا يسمع من أستاذه الكلام الفصيح إلاّ عند قراءة النص أو إملاء الملخّص. يجرتنا هذا للقول إنّ القدوة الحسنة والحال هذه تعيش انحسارًا كبيرًا في الوسط التعليمي الذي اجتاحتها العامية في كثير من جوانبه، وهو العامل الذي يُفسّر غياب الحافز لدى التلاميذ في ممارسة الخطاب العربي الفصيح والسليم داخل الأقسام الدراسية، ففاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء بما فيه ينضح.

يبدو أيضًا أنّ التلاميذ عندنا يتبرّمون من التواصل باللغة العربية الفصحى داخل الحجرات الدراسية، فهم لا يستعملونها إلاّ عند القراءة، أو تسميع ما تمّ حفظه، أو كتابة الملخّصات التي تملى عليهم داخل القسم. يحدث هذا في سائر المواد الدراسية بما فيها اللغة العربية، إلا في بعض الحالات التي يجبر فيها أستاذ اللغة التلميذ على تجنب استعمال العامية. وقد قدّمت تبريرات متعددة لهذا الوضع على نحو: عدم تشجيع الأستاذ، والخوف من الوقوع في الخطأ، والثروة اللفظية الهزيلة التي لا تسعف في التعبير، والعقدة من ممارسة العربية الفصحى بسبب سخرية الزملاء في القسم وما إلى ذلك. إنّ هذا إشارة إلى مدى اهتزاز قيمة اللغة العربية ميدانيًا عند الدارسين، وعدم إدراك فاعليّتها في مجال التواصل بالرغم من ورودها في النسق القيمي لديهم

باعتبارها لغة الدين الإسلامي؛ خصّها الله بالقرآن الكريم، ولغة أهل الجنة، ولغة العلم والحضارة في القرون الوسطى، ولغة الشعر،...الخ). وهي نظرة إجلال وتقدير يُفترض أنّها تُساعد على ترقية المستوى فيها⁵

وأما عن المستوى الكتابي وصياغة الأجوبة يوم الامتحان، فإن المتمدرسين لا يجدون صعوبة في إنجازها، لأنهم يعملون على صب ما تمّ ترسيخه في الذاكرة بالحفظ، أو استعمال جمل وعبارات نمطية محفوظة عند التعبير، أو التعامل مع رموز ومصطلحات محفوظة أيضا، سبق التدرّب عليها في الفيزياء والرياضيات وغيرها من المواد العلمية والاجتماعية.

إنّ الأجوبة النمطية -حفظ قالب معين واستعماله كلّما دعت الحاجة إليه - في الامتحان لا يُشجع على تفتيق قدرات المتعلّم، ولا يسمح بتفجير طاقاته للانطلاق في توظيف اللغة بصورة إبداعية.

وأما عن درجة التعلّم الذاتي المنبثقة عن مطالعة الكتب والمجلات والجرائد باللغة العربية فتبدو ضئيلة لأنّه لا يتمّ اللجوء إلى هذا الباب إلا في حدود جدّ ضيقة، وذلك عندما يحصل التكليف بإنجاز أبحاث في موضوعات بعينها، ففي مثل هذه الحال يستعين التلاميذ بما يتوفر في الأنترنت. وأما اقتناء الكتاب وقضاء بعض الوقت معه فيكاد يكون ضرباً من التخريف -يستثنى من ذلك عدد قليل من التلاميذ الذين ينتمون إلى الأوساط المثقفة- لغلاء الكتاب من جهة وضيق الوقت من جهة أخرى، علاوة على ظهور وسائل الترفيه الالكترونية والتي تستقطب اهتمام الأعداد الهائلة من المراهقين والشباب.

وأما عن الجرائد والمجلات العامة، فإنهم يميلون صوب الجرائد الترفيهية - وبخاصة المكتوبة بالعامة- من مثل: "بانوراما" و"كونتاكت". وكذلك الجرائد العامة الثقافية والإسلامية كـ "سيدتي"، و"زهرة العربي"، و"الشروق العربي" ومجلة "العربي الصغير"، ما توفره نقط البيع بالشرق الجزائري عنابة تحديداً يُقرأ متن بعضها فيما هو متعلق بأمور العقيدة والفقہ والسيرة والأحداث اليومية وأخبار الناس والثقافة والرياضة، ويكتفى في بعضها الآخر بقراءة العناوين الكبيرة وحلّ الكلمات المتقاطعة، وقراءة الرسوم الكاريكاتورية. تبدو هذه القراءات هزيلة وغير موجّهة، مفتقرة إلى

النوعية والتحفيز، وهذا من شأنه أن يُفوّت فرصة تجويد المهارات اللغوية والتشبع بالمعرفة والحقائق من مصادرها الأولى.

وأما عن البرامج الشبكية المتلفزة الناطقة بالعربية الفصحى فيظهر أن الأفلام المدبلجة والتاريخية والمسلسلات الدينية والرسوم المتحركة والأشرطة الوثائقية حول الطبيعة والحياة ودروس العقيدة والسيرة تلقى اهتماماً عند الكثيرين من فئات الدارسين في مراحل التعليم العام. ولا شك أنّ وسائل الإعلام بتقديمها لنماذج حيّة عن اللغة العربية الوظيفية تعمل على تقريب الفصحى المعاصرة من المجتمع، وتقليل المسافات بين الناطق بالعربية وأصالته وتاريخه، وترقية المستوى والذوق في اللغة العربية، لأنها تعرض على المشاهد بيئة لغوية حيّة ومتميزة تشعره بجدوى استعمال هذه اللغة وتوظيفها في الحياة.⁶

تدني المستوى في اللغة العربية وموقف الباحثين:

يلحظ المهتمون بقضايا التربية والتعليم في الوطن العربي بصورة عامة أن تعليم اللغة العربية يواجه جملة من الصعوبات أدت إلى ضعف المستوى في اللغة العربية بشكل عام، وأوعزوا أسباب هذا الوضع إلى عوامل مختلفة، من بينها: نوعية المناهج، والطرائق المتبعة في التدريس، والإعداد اللساني⁷ والنفسي التربوي والبيداغوجي للمدرس، وغزو العاميات المحلية مجال التربية والتعليم. فقد بينت هيئات ومؤسسات متخصصة⁸ تابعت المعضلة عن قرب -وذلك من خلال تسليط الضوء على مستويات الأداء اللغوي عند معلمي اللغة العربية- أنّ هناك تفاوتاً كبيراً في أداء معلمي اللغة العربية، وصفتها في أحابن كثيرة بالعجز في استخدام الفصحى وغلبة العامية على الخطاب التعليمي.⁹ وانتهت أبحاث أخرى في تقويم منهج تعليم اللغة العربية بالمرحلة الثانوية والنظر في المهارات اللغوية اللازمة للدراسة الجامعية إلى عدم تمكّن طلاب المرحلة الثانوية من المهارات اللغوية العامّة المطلوبة لمتابعة الدراسة في الجامعة، وكذا إهمال منهج اللغة العربية في هذه المرحلة معظم المهارات اللغوية الضرورية للنجاح في التعليم العالي.¹⁰

وأما إذا انتقلنا إلى البحوث التي تناولت علاقة اللغة العربية الفصحى بالمواد التعليمية الأخرى فإنّها قد توصلت إلى نتيجة مفادها القطيعة في لغة الأداء التعليمي

بين اللغة العربية الفصيحة وهذه المواد. فمن المغالطات التي يتصف بها الكثير من المدرّسين عدم الجدوى من اتباع النهج الفصيح في تلقين المواد العلمية، والاجتماعية والفنية، باعتبار أنّ اللغة مادة قائمة بذاتها وهي ليست من اختصاصهم، والذي يعنيه في هذا كله أنّ التلميذ يفهم الدرس ويستوعب المفاهيم والأحكام والظواهر المعروضة عليه. أمّا كيف يُعبّر عنها التلميذ؟ ماهي الخصائص الأسلوبية التي تجدر الاستعانة بها عند عرض المعارف مناقشةً وكتابةً، فذلك ما لا يُهتمُّ به ولا يرومُه تلامذتنا ولا يحاسبهم عليه المعلمون الذين لا علاقة لهم بقوانين التواصل وحيثياته، ولا يحفلون بالعلاقة الجدلية بين الفكر واللغة.

يقول أحد المفكرين الغربيين مُنوهاً بقاعدة أساسية في التواصل ما يلي: "لكي تُفهمَ جيدًا يجب أن تعبّر بوضوح"¹¹ وبالتالي وضوح الفكرة مألّه التعبير الواضح عنها والفهم والاستيعاب من قبل الآخرين، "فإن الفيزيائي والكيميائي والرياضي والفيلسوف والمؤرخ... هؤلاء جميعًا في حاجة إلى أن يتعرفوا على العلاقات بين الظواهر، وإلى أن يوازنوا ويقارنوا ويحللوا ويستنتجوا، وأن يعملوا على إفهام الآخرين ما توصلوا إليه من نتائج، وما أحسّوا به من حقائق، فإذا لم تكن تعبيراتهم منطقية بحيث أن كل ما يقولونه بعيد عن اللبس والغموض، لما تحققت الفائدة، ذلك لأنّ من لا يحسن التعبير لا يتمكن من إفهام الآخرين...".¹² فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ وأن يُعنى مدرّسو المواد العلمية بتطوير مهارات التعبير والتواصل عند التلاميذ، وأن يراقبوا استعمالاتهم اللغوية من حيث الألفاظ والأساليب والعبارات مشافهةً وكتابةً، مع توخي الدقة والوضوح في الإجابات وتتبع الأخطاء ومعالجتها، لأنّها تدعو إلى غموض الفكرة وضياع المعنى واختلال الفهم.

ويرى آخرون أنّ اندفاع المتمدرّسين نحو الاستعانة بالعاميّة داخل القسم -الأستاذ يسمح لهم بذلك لأنّه هو بدوره يفعل ذلك- يترجم ضعف مستوى الأداء لديهم، وأنّ علّة هذا الواقع عدم قدرة البرامج الموضوعية لتعليم اللغة العربية على مساعدة التلميذ على بلورة هذا النظام اللغوي في نفسه، وجعله جزءًا منه، فيتمكّن من استعماله بصفة لا شعورية يكون فيها الفكر مركزًا على المعنى وليس على نوع الجملة وشكلها،¹³ وهذا يعني بوجه آخر عدم إدراك الجانب العقلي في استخدام اللغة.

نتائج التواصل بالعامية في الوسط التعليمي:

من المعلوم أن لاستعمال العامية داخل الأقسام الدراسية آثارًا سلبية كثيرة على عمليات التواصل الفكري والخطاب العلمي والثقافي، فالتلميذ يتأثر بما يسمعه يوميًا في واقع حياته التعليمية، فتترسخ لديه عادات لغوية مشوهة، تنأى به عن التعامل بالتسميات والأساليب العربية المناسبة للتعبير عن مجالات الحضارة والحياة المعاصرة. ومما لا يختلف فيه إثنان أن هذا المستوى من الأداء اللغوي لا يسهم من قريب ولا من بعيد في تربية السليقة اللغوية للناشئة بالقدر الكافي، ويؤدي بشكل عام إلى تدني المستوى في اللغة العربية من الجوانب الآتية:

1- تغييب مواصفات المتحدث الجيد - في ضوء مستوى كل مرحلة تعليمية -

من النواحي التالية:

- أ- الأفكار: تبدو الأفكار مشوشة بسبب اللبس في الفهم، ومضطربة لعدم تسلسلها وإخضاعها للترتيب المنطقي والخروج عن فلك الفكرة الأساسية.
- ب- الأسلوب: تبدو لغة التلميذ هشة، وبعيدة عن الاستخدام السليم لعدم الانتفاع من القواعد المدروسة، وألفاظه ضحلة اكتست بطابع العامية والابتذال، وغير قادر على تنويع أسلوبه من حيث المفردات والتراكيب.
- ج- الكلام: تبدو عدم العناية بالمظهر الصوتي من خلال قلة العناية بنطق الأصوات من مخارجها وعدم التنويع في نبرات الصوت والتكلم بوضوح، وصوته غير مناسب لا يُمكن السامع من حسن الإنصات إليه وسهولة متابعته.
- د- الهيئة: (ومتصلة بالمظهر الحسي الحركي للتلميذ) يبدو عليه التردد والاضطراب ولا يشارك جسمه في التعبير، فحركاته وتعايير وجهه لا تعزّز كلماته، لا تقوّي معانيه، وغير قادر على المشاركة بشكل أساسي بناءً في المناقشات وتبادل الآراء.

- 2- يورث التواصل بالعامية في الوسط المدرسي عدم القدرة على كتابة التقارير، والاقتراس من الكتب بإعادة صياغة المعلومات وتلخيصها بدقة.
- 3- إن الضعف في اللغة العربية يعني أيضاً ضعف التواصل مع التراث بكل ما يحمله من أصول عقائدية وقيم حضارية.
- 4- إن الضعف في اللغة الأم والسعي في تغييبها يؤدي إلى التبعية الفكرية والثقافية.

نستنتج مما سبق أن اعتماد العامية وسيلة للتواصل في العملية التعليمية يؤدي إلى نتائج جدّ وخيمة تهدد هويتنا وتاريخنا وأصالتنا ورقيننا، فلا بدّ إذاً وأن ندقّ ناقوس الخطر حول واقع لغة التعليم داخل مؤسساتنا التربوية والتعليمية.

أساليب معالجة الظاهرة:

إن لكل داء دواء يستطب به، ولكل ضعف قوة تشده، ولكل أزمة انفراج تؤول إليه، ولكل أمة تحديات تحرص عليها، والتحدي الذي ينبغي أن نرفعه هو تعزيز جانب العربية الفصحى المبسطة في مجتمعنا، والارتقاء بمستوى الأداء في التخاطب بين المعلم والمتعلم. إننا لا نريد للعربية أن تكون فقط لغة المناسبات واللقاءات الرسمية التي تتطلب مستويات أعلى في الأداء -العناية بالجانب الجمالي للغة-، بل أن تكون أيضاً أداة عمل وتحصيل وبحث وتبادل المعارف داخل المؤسسات التعليمية وخارجها، فإن هذا التعامل الواسع يجعلها مرنة طيعة، ويثريها وينمي قدرتها على التعبير بما يلبي الحاجات والرغبات، ولكي نتجاوز هذه المحنة فمن الضروري أن نجسد المعطيات الآتية على أرض الواقع:

أولاً: توفير البيئة اللغوية والقذوة الحسنة:

يقول ابن خلدون: "...فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعةً وجبلةً لذلك المحلّ... وهذه الملكة كما تقدّم إنّما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرّره على السمع والتفطن لخواص تركيبه..."¹⁴ يشير هذا التعريف إشارة مباشرة إلى السبيل الفطري لتحصيل ملكة اللغة، والمائل في السماع والاستعمال، فكلاهما يتطلب توفير البيئة اللغوية والقذوة الحسنة للمتعلم، يتلقى من خلالها اللغة الفصحى المبسطة بكيفية ناجعة، فيتواتر عليه سماعها سليمة نقية بدءاً من الأستاذ والمرشد في

المدرسة، والصحافي والممثل في الإذاعة والتلفاز، والمتقنين، والخطباء في المنابر واللقاءات العامة والخاصة، والمسؤولين وأصحاب النفوذ عندما يتوجهون بحواراتهم وخطبهم إلى الناس.

وإذا كنا عاجزين عن توفير هذه البيئة اللغوية خارج أسوار المدرسة، فلنعمل على دعمها وتعزيزها داخل مدارسنا وفي مختلف مراحل التعليم العام، بحيث يصبح كل مدرس داخل مؤسساتنا التربوية مدرّساً للغة العربية بحكم أنها لغة التعليم المستعملة في الفعل (الأداء) التعليمي. ثم إن تعليمية اللغة مسؤولية جماعية، يتحملها أستاذ اللغة وسائر الأساتذة ممن يدرسون باللغة العربية، فلا بد أن يلتزم هؤلاء باستعمال العربية الفصحى المبسطة في التدريس عامة وليس في مادة اللغة العربية فقط، والاتجاه صوب التشجيع المستمر للتلاميذ على ممارستها نطقاً وكتابةً والسماع المتواصل للنماذج الفصيحة، أو قراءتها، ليدركوا خصائصها وأساليبها الأصلية، ويتمثلوا ذلك على الصعيد العملي مع تدريبهم على أنماط التفكير المنطقي السليم، وبشكل منهجي منظم. ولا يحصل ذلك إلا باللغة، فلا وجود لتفكير سليم بغير لغة سليمة.¹⁵

إن توفير البيئة اللغوية السليمة يعني أيضاً تحسين الأداء اللغوي للأساتذة بإجراء دورات تدريبية مكثفة وعلى فترات متكررة.

ثانياً: تنمية الاتجاه نحو التعلّم الذاتي:

نعني بتنمية الاتجاه نحو التعلّم الذاتي هو أن يوجّه المتعلّم للحصول على المعرفة وتحسين الأداء اللغوي والمعرفي من مصادر أخرى غير المدرسة، كالإفادة من الوسائل الإلكترونية المعاصرة في تعليمية اللغة العربية والمواد الدراسية الأخرى عبر برامج الحاسوب وشبكات الانترنت، والاستعانة بما يقدم في المذياع والتلفاز من أحاديث وخطب وحوارات وندوات حيّة - منتقاة باللغة الفصحى المبسطة - ينشطها علماء وأدباء ومتقنون متميزون، مع مداومة الإنصات إلى ذلك، ومطالعة النصوص القديمة ذات اللغة السلسة الميسرة في مجالات التعبير، فإنّ لذلك تأثيراً واضحاً على التلميذ، يشعره بارتباط الماضي بالحاضر لغةً وفكراً وحضارةً. كما يعرفه على المستويات الراقية من الاستخدام اللغوي سواء من حيث المفردات وبناء الجمل، وفهم أسرار اللغة، وإدراك الفروق بين الاستعمالات اللغوية المحدودة التي علّمت والتعبير

المجازية التي يبدعها الأدباء، فيتنامي بذلك الإحساس بجمال الفصحى، ويتسع مجال إشباع حاجات التواصل المختلفة.

إن إتيان مثل هذه السبل يجعل المتلقي -في شخص التلميذ طبعاً- على اتصال مستمر باللغة العربية الفصحى سماعاً وقراءة، ومنه تنهذب لغته وترقى، ويصبح أكثر قدرة على أدائها تعبيراً واستدلالاً وبرهنة وحجاجاً، وتزداد ثقته باللغة العربية واعتزازه بها باعتبارها عنصراً أصيلاً في تكوين شخصيته.

ثالثاً: دور العلماء والمؤسسات:

مما لا يخفى عنا أن علماء العربية وباحثيها اجتهدوا - ولا زالوا يفعلون - في سبيل ترقية اللغة العربية وجعلها لغة الحياة في أوسع معانيها وذلك من خلال الهيئات والمؤسسات الرسمية على نحو: الجامعات العربية ومجامع اللغة العربية والمنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم. فهم يسعون للإحاطة بمشاكل اللغة العربية في الحياة، نخص بالذكر هنا: الصراع بين العامية والفصحى، واللغة العربية وقضايا التعليم، وتيسير النحو العربي، والخطاب العلمي والتعليمي، والأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، وخصائص العربية وقدرتها، والمصطلحات العلمية والتقنية والفنية، وصناعة المعاجم وما إلى ذلك.¹⁶ فلا يمكن أن نغفل عن الجهود الكبيرة التي بذلها هؤلاء لتيسير النحو العربي عبر فترات زمنية متعاقبة في هذا العصر، بحيث أصبحت القواعد النحوية لا تشكل عقبة كبيرة في عمليات التثقيف والإعلام والتعليم العام بالفصحى المعاصرة. وهناك من العلماء من دعا إلى تفصيح العامية بالنظر في الاستعمالات الفصيحة الواردة في العامية، والتشجيع على أدائها لتقريب المجتمع من العربية الفصحى الراقية،¹⁷ وورد في هذا الصدد أيضاً الدعوة لما يسمى بـ"نظرية اللغة الثالثة"¹⁸ -مع أحمد المعتوق- وجعلها لغة للحياة، تضم الخصائص والأساليب اللغوية الفصيحة المشتركة بين العربية العامية والعربية المعيارية الفصيحة. إن في هذا إشارة بيّنة إلى أن أبناء العربية من علمائها الأفاضل لا يدخرون جهداً في خدمتها، ولكننا نقول إن هذا لا يكفي فكم من قرارات أصدرتها مجامع اللغة العربية خانتها الوسائل وكذا دعم السلطة سياسياً.

رابعًا: دور وسائل الإعلام:

يمكن لوسائل الإعلام أن تلعب دورًا رائدًا في ترويج الاستعمال الفصيح للعربية المعاصرة النقيّة السليمة، وتيسيرها وتبسيط طرق آدائها من خلال ما نعرضه من نتاجات هذه اللغة بشكل واسع ومبسط على الشرائح الواسعة من المجتمع، انطلاقًا من الأفلام المدبلجة والمسلسلات التاريخية، والبرامج الدينية والأنشطة الثقافية والتعليمية والتي تلقى إقبالًا كبيرًا من طرف الجمهور.

كما يمكننا أن نسوق أمثلة لمحاولات تيسير العربية الفصحى وتبسيط نحوها وصرفها وأدائها بوجه عام من خلال برامج الأطفال الناجحة والهادفة إلى تعليم العربية، كبرنامج "افتح يا سمس"، وبرنامج "المناهل"، و"البراعم"، والرسوم المتحركة الناطقة بالعربية الفصحى، فمن شأن هذا كله أن يدفع بالأطفال إلى الإعجاب بلغتها وحسن تذوقها وترديد عباراتها وأغانيها.

هكذا نريد لوسائل الإعلام أن تتحمل مسؤوليتها، وأن تجتهد في تقديم برامج جيدة لغويًا ومعرفيًا وثقافيًا تعمل بشكل مستمر على ترسيخ هذه اللغة في أذهان الناس بأن تعتادها الأسماع، وتألّفها الأنفس، وتجري عليها الألسنة.

خامسًا: الإرادة السياسية الواضحة والصارمة:

إننا عندما نتحدث عن الإرادة السياسية فإننا نعني بذلك الموقف الواضح والعملي للسلطة في البلاد إزاء قضايا التعليم واللغة العربية، فلكي تلقى قرارات مجامع اللغة العربية ونتائج أبحاث العلماء طريقها إلى الواقع، لا بد وأن تجد دعمًا سياسيًا قويًا، يلزم المؤسسات والأفراد بتطبيقها من خلال القوانين التي تسنها والدعم المادي الذي توفره، ولنا في الأمم المتقدمة صناعيًا وثقافيًا -فرنسا وألمانيا مثلًا- أحسن مثال في ذلك.

خاتمة:

يقول أحد الغيورين على اللغة العربية: "لو تهيأت لهؤلاء الضعاف في لغتهم القدوة الحسنة المؤثرة، وألفوا سماع اللغة بألفاظها الفصيحة وتراكيبها السليمة من أساتذتهم أولاً وقبل أي جهة أخرى، ثم من خلال أجهزة الإعلام ووسائل التنقيف والتعليم العام والخاص المحيطة بهم، وأشربوا حب اللغة الفصيحة، وأشعروا عمليًا بحيويتها وبضرورة تمثلها ومتابعة الاهتمام والارتباط بها، وتعودوا على تذوق نصوصها

وموضوعاتها المتنوعة،. لتهذبت أذواقهم وصقّت فطرتهم، ولم يقعوا في اللحن أو لم يكثرُوا الوقوع فيه".¹⁹

إنّ الحديث عن القدوة الحسنة في شخص المعلم يثير جملة من المعطيات التي ينبغي العمل بها، وهي كما يلي:

- أداء العربية الفصحى المعاصرة بصورة متواصلة.
- الدعوة العملية إلى استعمالها والوقوف على أهميتها ونجاعتها.
- زرع روح الاعتزاز بها والغيرة عليها والحرص على سلامة استخدامها.
- العمل على تميز الخطاب التعليمي بالرصانة والتمسك، لتلافي الغموض واللبس الذي من حيثياته تعطيل العملية التواصلية في التعليم.
- تزويد المتعلم بالمهارات اللغوية والفكرية التي تجعله قادراً على تلقي المعرفة في مختلف المستويات، فيحصل بذلك التكامل بين ما هو لغوي وما هو معرفي في ذهنه.

وعلى هذا النحو تتمكن المدرسة -والجامعة أيضا- من تخريج طلبة قادرين على صياغة عبارات لغوية سليمة فكرا وأسلوبا، فتتضاءل بذلك دائرة الشكوى من الضعف في اللغة بشكل عام.

الهوامش

- 1- انظر: توفيق أحمد مرعي ومحمد محمود الحيلة، المناهج التربوية الحديثة، مفاهيمها وعناصرها وأسسها وعملياتها، دار السيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، الأردن، 2000، ص25. وأحمد مذكور، تدريس فنون اللغة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص 30.
- 2- رشيد طعيمة، مناهج تدريس اللغة العربية بالتعليم الأساسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1998، ص 33.
- 3- انظر: رشدي طعيمة، نفسه. وحلمي أحمد الوكيل، ومحمد أمين المفتي، المناهج، المفهوم، العناصر، الأسس، التنظيمات، التطوير، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، القاهرة، دت، ص115 وما بعدها.
- 4- انظر: الكتب المدرسية الصادرة عن الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية في الجزائر.

- 5- تعبر هذه النظرة من جانب آخر عن موقف إقصائي لدور العربية الفصحى في الحياة، وكأنها لغة الأبراج العاجية، لا تمتّ بصلّة إلى الواقع المعيش إلا في حدود جدّ ضيقة.
- 6- يأتي وصف هذا الواقع من جملة من اللقاءات جمعتنا بعينة من التلاميذ في المرحلتين المتوسطة والثانوية وكذا محاورات أجريناها مع بعض الأساتذة في الطورين.
- 7- انظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات، ج1، منشورات المجمع الجزائري باللغة العربية، الجزائر، 2007، ص 160، 163، 174، 179، 180.
- 8- نذكر من بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومجامع اللغة العربية، والجامعات.
- 9- أجرى هذه الدراسة الباحث معاطي محمد إبراهيم، بكلية التربية بدمياط (مصر) سنة 1988، تحمل عنوان "مستويات الأداء اللغوي عند معلمي اللغة العربية".
- 10- قام بهذا البحث الأستاذ سمير عبد الوهاب أحمد بكلية التربية، دمياط بجامعة المنصورة عام 1988.
- 11- Pierre Larc, *L'enseignement du français*, Presses universitaire de France, Paris, 1969, p 25
- 12- محمود أحمد السيد، الموجز في تدريس اللغة العربية، دار العودة، بيروت، ط1، 1980، ص 15.
- 13- رشدي طعيمة: الأسس العامّة لمناهج تعليم العربية، إعدادها، تطويرها، تقويمها، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص 118.
- 14- ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2002، ص 581-582.
- 15- رشدي طعيمة، السابق، نفسه، ص 134.
- 16- انظر أعمال الأستاذ د. عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، وج2.
- 17- نذكر من بينهم الباحث الجليل عبد الرحمن الحاج صالح، والأستاذين رشدي طعيمة، ومحمد أحمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، دراسة في قضية العربية الوسطى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.
- 18- الهدف منها تطوير لغة عربية فصيحة معاصرة للتعليم والتواصل الإعلامي.
- 19- محمد أحمد المعتوق، السابق، ص 182.